التعصب (*)

﴿ تتمة ماسبق ﴾

لم يكن الاستمساك بعروة الدين على عهد العباسيين كما كان على عهد الخلفاء الراشدين فيساووا بين رجل من آحاد يهود وبين أعظم مسلم علما ودينا ومكانة وقربا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كعلي كرم الله الله تعالى وجهه ، ويحاسبون أنفسهم وينكر بعضهم على بعض اذا أخل بالعقل والمساواة ولو في اللقب والكنية كما علمت ، ولكنهم (أي العباسيين) لقربهم من عهد النبوة كانوا على مقربة من ذلك : يحكمون بالشريعة ويتأدبون بآدابها بالجملة ، والشاهد الذي أريد ايراده من تاريخهم قريب من الشاهد الذي أوردته عن عمر وعلي (عليهما الرضوان) في معاملة اليهودي ، وهو بعض خبر أبي اسحق الصابي . لا أعني بذلك اعتراف الخلفاء بفضله وتقديمهم اياه الاعمال الجلائل مع ديوان الرسائل ، وانما أعني ما كان بينه وبين الطبقة العليا من المسلمين من الموادة والمخالقة ، نذكر منها بعض خبره مع الشريف الرضي ، وهو من علمت مكانته من الشرف الباذخ والسؤدد الرفيع ، وكان في العلم لا يضاف اليه كفيح ولا يقرن به نديد ، وهو من أئمة الشيعة وكفاك أنه اجتمعت له الاجادة في المنظوم والمنثور معا ، وهي — كما قال ابن خلدون — لا تتفق الا للاقل ، ولقد كان يعامل أبا اسحق معاملة الاكفاء والنظراء مع انه كان يسامي الخلفاء ويطاولهم ويفاخرهم في مجالسهم ، حتى ان الخليفة

(*) فاتحة العدد السابع والعشرين الصادر في ٣ جمادى الاولى سنة ١٣١٦

القادر بالله كان يتهمه بالتطلع الى الخلافة لانه يرى نفسه أحق بها لمكانة نسبه، وعلمه هذا وأبو اسحق من الصابئة الذين هم أضعف وأحقر فرقة من فرق الاديان، لكنه كان فاضلا بليغا فلم يحل خلاف دينه وضعف طائفته دون معاملته بما يستحق فضله من الاجلال وتقليد الاعمال. ولقد كان مثل الشريف يجله لفضله وأدبه، لا لوظيفته ومنصبه، ومن آية ذلك مرثاته التي رثاه فيها بعد موته، فان فيها من الثناء عليه ما يربي على ما كان يكتبه له في حياته من المراسلات المنظومة والمنثورة، واننا نأتي ببعض أبياتها وان كانت مشهورة زيادة في البيان. مطلع القصيدة

أعلمت من حملوا على الاعواد ... أرأيت كيف خبا ضياء النادي

(ومنها)

بعداً ليومك في الزمان فانه ... أقذى العيون وفت في الاعضاد
لا ينفد الدمع الذي يبكي به ... ان القلوب له من الامداد
كيف انمحى ذاك الجناب وعطلت ... تلك الفجاج وضل ذاك الهادي
قد كنت أهوى ان أشاطرك الردى ... لكن أراد الله غير مرادي
سودت ما بين الفضاء وناظري ... وغسلت من عيني كل سواد
ثكلتك أرض لم تلد لك ثانيا ... أنى ومثلك معوز الميلاد
ليس الفجائع بالذخائر مثلها ... يا ماجد الاعيان والافراد
لا تطلبي يا نفس خلا بعده ... فلمثله أعيي على المرتاد
الفضل ناسب بيننا ان لم يكن ... شرفي يناسبه ولا ميلادي
ان لم تكن من أسرتي وقبيلتي ... فلأنت أعلقهم يدا بودادي

ان الوفاء كما اقترحت فلو تكن حياً اذاً ما كنت بالمزداد
ضاقت علي الارض بعدك كلها وتركت أضيقها علي بلادي
لك في الحشا قبر وان لم تأوه ومن الدموع روائح وغواد

الى أن قال في آخرها

صفح الثرى عن حر وجهك انه مغرى بطي محاسن الاعجاد
وتماسكت تلك البنان فطالما عبث البلى بأنامل الاجواد
وسقاك فضلك انه أروى حيا من رائح متمرس او غاد

ان الشريف الذي قال ان الفضل ناسب بينه وبين أبي اسحق وانه كان أعلق نسبائه وأسرته بوداده هو الذي أنشد الخليفة القادر بالله هذه الابيات (من قصيدة) في مجلسه وهي :

مهلا أمير المؤمنين فانتا في دوحة العلياء لا تفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبدا كلانا في المفاخر معرق
الا الخلافة ميزتك فانني أنا عاطل منها وأنت مطوّق

وهو الذي رثى الخليفة العادل والامام المجتهد عمر بن عبد العزيز الذي رفع من شأن آل البيت الكرام بعد اضطهادهم من سلفه الامويين والذي مناقبه ومآثره لا تحصى فاقتصر من مدحه على مثل قوله

يا ابن عبد العزيز لو بكت العيـ ـن فتى من أمية لبكيتك
غير اني أقول انك قد طبـ ـت وان لم يطب ولم يزك بيتك
وعجيب أني قليت بني مر وان طرا واني ما قليتك

يقول انه لا يمكن البكاء على عمر بن عبد العزيز، وقال ان الدمع الذي يبكي به أبا اسحق لا ينفد لان له مداداً من القلب ويعجب أنه لم

يقل عمر ويخفضه ولم يقل انه يحبه ، وقد عهد الى نفسه أن لا تتخذ خلا بعد أبي اسحق ، وقال انه أعلق أهله وأنسباءه بوداده ، وهذا مما يؤيد قولنا السابق ان الافراط في التعصب الديني لم يعهد من المسلمين الا مع المخالفين في المذهب دون المخالفين بأصل الدين ، كما انه وقع منهم التعصب للجنس أحياناً ولا حاجة لبيان ذلك لانه مما لا نزاع فيه . وهذا الشاهد الذي أوردناه له نظائر كثيرة يعرفها من نظر في كتب التاريخ الاسلامية لا سيما قبل الحروب الصليبية

وأما الدولة العلية العثمانية فحسبك من حسن معاملتها للمخالف لها في الدين وهي في أوج عزها ومنتهى قوتها ، ما كان من السلطان محمد الفاتح مع الروم يوم فتح القسطنطينية واقراره للبطريق على امتيازه وامتياز طائفته ، واعطائهم الحرية الكاملة ، ومنحهم الرعاية الشاملة ، وتسجيل ذلك في قوانين المملكة ، وجعله عهداً متبعاً في الدولة لا ينقض ، تعطي للبطارقة به الوثائق (الفرامين) السلطانية من ذلك العهد الى الآن خلافاً لما كان يعاملهم به الكاثوليك من القسوة والاضطهاد . ولقد كان عرض على الروم الخضوع لكنيسة رومية بازاء انتصار اخوانهم الكاثوليك لهم واغاثتهم من العثمانيين فائتمروا بينهم وأقروا على ان رؤية تاج السلطان محمد في مذبح كنيسة آياصوفيا أهون وأحب اليهم من رؤية عراقية (قبعة مخصوصة) كردينال من جماعة البابا فيه ، ولولا أنهم كانوا يعلمون من العثمانيين العدل والاحسان والمجاملة لما فضلوا سلطتهم على الاتحاد مع اخوانهم في بعض قضايا الدين ، وبقاء سلطتهم لهم ولم تزل تلك الامتيازات مرعية الى اليوم وربما نذكرها في فرصة أخرى لمناسبة تعن

لقد سام العثمانيون من سبقهم من العباسيين والامويين في رفع مخالفيهم في الدين – لا سيما النصارى الى المناصب العالية، فجعلت الدولة حكاماً للعرب وللملكتين من اليونان فألفوها وكانوا لنعمتها من الكافرين، ولقد كان منها مثل ذلك في عهد كانت ترتعد فيه أوربا من بأسها، ومافتئ جارياً بحركة الاستمرار الى هذا الحين، ثم لم يكن السير على نحو واحد لما تقتضيه طبائع الاوقات من اختلاف الحالات، وكلنا شاهد رعاية الدولة العلية لطائفة الارمن حين رأت من جدهم واجتهادهم في العلم والعمل حتى انها قلدتهم الاعمال الجليلة لا سيما في المالية ورفعت غير واحد منهم الى مقام الوزارة، وبالجملة قد ميزتهم حتى على العرب الذين أكثر رعاياها وأخلصهم وأكثرهم على دينها، فقابلوها على ذلك بالكنود والكفران والخيانة والعصيان. كان منهم من يظهر المغفرة في صورة المنفعة، ويلبس الامانة ثوب الخيانة، كأغوب باشا الذي قرر خفض مرتبات وأجور صغار العمال بحجة توفير المال في الخزينة، وهو يعلم انه يضطرهم بذلك الى الرشوة التي تفسد السلطنة وتضعضع بنيانها

ويعلم أكثر القراء (المصريون) ما كان من خدمة نوبار باشا لانكلترا في مصر التي ثبتت أقدامهم فيها على حين كانت في زلزال، وأمر الاحتلال قرين الاختلال. وقد انتهى أمر الارمن في الدولة الى الثورات والفتن والسعي في احراق الباب العالي ونسف البنك العثماني وان شئت فقل بمحو الدولة العلية حماها الله تعالى من دول الارض – كل هذا يكون بدسائس أوربا ثم لا يخجل عظماء ساستها أن يقولوا ان الدولة متعصبة تهين رعاياها المسيحيين فيجب انقاذهم. وانما هي القوة تقول للضعف

ما تشاء — ما أصاب المسيحيين من حسنة في ظل الدولة العلية فتزعم أوربا انه كان خوفاً منها أو تعمية عليها ، وما أصابهم من سيئة فتقرنه بتعصب الدولة وتحمسها ، وان تاريخ الدولة يكذبها في زعمها الذي تغش به الجهلاء والمخدوعين

كانت أوربا على عهد السلطان سليم ياوز ترتعد فرائصها من خشية الدولة العلية ، وكانت الولايات المسيحية الاوربية العثمانية تكثر الخروج على الدولة لاسيما في إبان اشتغال الدولة بالحرب، وما كان يجرؤها على ذلك الا خفض العيش وفرط الطيش، فارتأى السلطان سليم رحمه الله تعالى أن يجبرهم على الاسلام أو يمزق عصبيتهم بالتشتيت والتفريق باجلائهم عن أوطانهم ، فاستفتى شيخ الاسلام العلامة أبا السعود فأفتاه بعدم جواز ذلك شرعاً ، فعدل عن رأيه وان كان لرأيا سياسيا حكيما . فهل كان ذلك عن خوف أو مصانعة لاوربا أم هو الدين الاسلامي الذي يقول كتابه العزيز « لا إكراه في الدين » وتصرح سنته بأن من آذى ذميا كان النبي صلى الله عليه وسلم خصمه يوم القيامة ونحو ذلك من النصوص

وخلاصة القول ان الغلو في الدين أو التحمس الديني وهو مايطلق عليه أهل العصر التعصب هو مما نهى عنه الدين الاسلامي صريحا « لا تغلوا في دينكم » وآداب الاسلام وأحكامه تنافيه كما تنافيه أيضا آداب الانجيل ومواعظه ، ولم يضرم الاوربيون نيرانه في العالم قديما وحديثا اتباعا للانجيل وان كانوا أظهروه بمظهر ديني ، بل لم يلابس الدين قلوب الاوربيين في عصر من الاعصار، وما كانوا متبعين للانجيل يوما من الايام وأما قول الانجيل ما جئت لالقي سلاما انما جئت لألقي سيفا

انما جئت لالقي ناراً ، فليس معناه الامر بالحروب والفتن ، وانما هو أخبار عن المستقبل ، أي انه بسببه يحصل هذا وان لم يكن مأموراً به ولا مرضيا ، هذا ما نفهمه من تطبيق مثل هذا النص على سائر النصوص التي تصرح بوجوب الخنوع والتسليم لاي حاكم ، واعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وهي كثيرة ولا تسمع من رجال هذا الدين الا انه دين سلام واستسلام وانما حارب الاوربيون لاجل الدين المسيحي واكرهوا الناس عليه اجيالا وغلوا فيه غلوا كبيراً ، حتى سرت عدوى غلوهم وافراطهم في تعصبهم الى غيرهم ممن جاورهم ، لان روح الحرب والفتنة كان صاحب السلطان الاكبر عليهم ، والمصرف لاجسادهم قبل دخول الدين المسيحي في بلادهم ، ولقد تناولوا الدين من أبناء الرومانيين وهم — كما قال في العروة الوثقى — » على عقائد وآداب وملكات وعادات ورثوها عن أديانهم السابقة ، وعلومهم وشرائعهم الاولى ، وجاء الدين المسيحي اليهم مسالما لعوائدهم ومذاهب عقولهم ، وداخلهم من طرق الاقناع ومسارقة الخواطر ، لا من مطارق البأس والقوة ، فكان كالطراز على مطارفهم ، ولم يسلبهم ما ورثوه عن أسلافهم ، ومع هذا فان صحف الانجيل الداعية الى السلامة والسلم لم تكن لسابق العهد مما يتناوله الكافة من الناس ، بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين ، ثم ان الاحبار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع وسنوا محاربة الصليب ودعوا اليها دعوة الدين التحمت آثارها في النفوس بالعقائد الدينية وجرت منها مجرى الاصول ، ولحقها على الاثر تزعزع عقائد المسيحيين في أوربا وافترقوا شيعا وذهبوا مذاهب تنازع الدين في سلطته ، وعاد وميض ما أودعه أجدادهم في جراثيم وجودهم ضراما » ثم أرشدهم

النظر في طبائع الكون والاعتبار بحالهم وماضيهم الى استعمال الدين آلة سياسية، وهذا ما يحمل حكومة تصرح رسمياً بانه لادين لها على اعلان حمايتها النصارى الكاثوليك في الشرق، وهذا بعينه هو الذي حمل قياصرة الروس على ادعاء الرئاسة الدينية واعلان حماية الروم الارثوذكس، ومن هنا نرى الفتن التي تحدث في بلاد الدولة من النصارى تظهر على أيدي أبناء مذهب الدولة الاوربية المحركة للفتنة، فالنيران التي اشتعلت في البلقان قبيل اعلان روسيا الحرب على الدولة العلية انما أشعلها الارثوذكس تمهيداً لهجومها وهجمتهم، والنيران التي أضرمت اخيرا في أرمينيا انما أضرمها البروتستان بحض بريطانيا العظمى البروتستنتية، وانما يذم الافرنج والمتفرنجون التعصب الديني ليخدعوا الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا فيحلوا رابطتهم الدينية التي هي أقوى الروابط الجامعة بينهم على اختلاف لغاتهم وأجناسهم، ويصدوهم عن تعصبهم وتحمسهم، لكنهم كثيرا ما تحملهم الاغراض والمقاصد السياسية على التصريح بالحقيقة فقد صرحت جريدة الطان وهي من أشهر جرائد فرنسا بأن حرب الانكليز للسودان تمثل واقعة من وقائع الحروب الصليبية، وصرحت بعض الجرائد النمسوية والالمانية الشهيرة فيما افادنا البريد الاخير بان الخطة التي تجري عليها أوربا مع مسلمي كريت هي السبب في كل اضطراب حدث ويحدث في الجزيرة، وان حالة الجزيرة قد ساءت منذ تولت أوربا ادارة أحكامها وشؤونها، وهي تزداد كل يوم خرابا ودمارا، فالمسيحيون واقعون في ضيق شديد وعذاب أليم، ولكن عذاب المسلمين وضيقهم أعظم، لانهم محرومون من جميع حقوقهم تقريباً، وقد صبروا زمانا طويلا على مصائبهم وخطوبهم حتى ملوا مرارة الصبر

وعذاب الانتصار ، وطفحت الكأس الى الاصبار . هذا ما تعترف به جرائد الامتين اللتين انفصلت حكومتاهما عن أوربا وأبتا مشاركتها في بغيها على أهل تلك الجزيرة ، كل هذا والاميرال الانكليزي يشدد في طلب تعجيل نزع السلاح عن المسلمين دون النصارى ليتمكنوا من استئصالهم عاجلا ، ومولانا السلطان الاعظم يطلب نزع السلاح من الفريقين كما يقتضيه العدل والمساواة في الظاهر ، وان كان في الباطن فيه اجحاف بالمسلمين لا من حيث الطلب نفسه بل من حيث ان المسيحيين أكثر عددا وعددا ، والاوربيون يحمونهم برا وبحرا ، كما تصرح بذلك الجرائد المسيحية قالت الاهرام (وعندنا ان جلالة السلطان مصيب فيما يفترضه من نزع السلاح من المسيحيين والمسلمين في كريت لا من المسلمين وحدهم ، اذ ليس من العدل ولا من الحكمة ان تجبر الفئة القليلة وهي لا ناصر لها ولا معين ، وتبقى الفئة الكبيرة القوية مسلحة وهي محمية ببوارج الدول ومدرعاتها) اهـ .

لقد قلنا ان تعصب أوربا في هذه الازمنة مموه ، وكان في العصور السالفة مشوها ، وأبلغ من هذا ما نقل عن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين انه قال لبعض كتاب جرائد أوربا « ان أوربا تحاربنا حربا صليبية في شكل سياسي » لكن مسألة كريت خرجت عن دائرة المحاولات السياسية الى العدوان الظاهر ، وتجلى فيها الافراط في التعصب الذميم في أقبح صوره المشوهة ، ولقد ذم اوربا ولعن اتفاق دولها العظام كل كاتب حتى كاتب المقطم فاعتبروا يا مدنية أوربا يا أولي الابصار !

فيا أيها المسلمين تمسكوا بدينكم وتعصبوا فيه ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، ولا تعتدوا في تعصبكم حدود العدل فتعتدوا على غيركم

المخالفين لكم في الدين، فان ايذاء أي مخالف من ذمي ومعاهد ومستأمن وبعبارة أخرى غير حربي حرام في دينكم، وخروج عن هديه القويم، سواء كان الايذاء بالقول أو الفعل، ومن قال لكم ان التعصب بهذا المعنى مذموم فهو غاش مخادع، يريد ان يفتنكم عن دينكم الذي لا تقوم لكم قائمة بدونه، بل ما أصبتم بالمصائب واتابتكم النوائب الا بانحرافكم عما كان عليه سلفكم الصالح، وتشبثكم بالبدع وانغماسكم في الشهوات واقترافكم المنكرات.

لا أعني بالبدع والمنكرات اختلاف اشكال الازياء وألوان الطعام والشراب المباحين، فان المخالفة في هذا ليست مخالفة في الدين وانما هي مخالفة في العادات، وانما أعني الانحراف عن اخلاقهم الفاضلة وأعمالهم النافعة، كالعفة والشجاعة والعدل وعلو الهمة وعزة النفس والتواضع وما ينجم عنها وعن أمثالها من الآثار، لا تكونون مؤمنين حتى تكونوا - كما قال الله تعالى - أخوة، أبوكم جميعا خليفة المسلمين الذي يجب على كل مسلم في مشارق الارض ومغاربها الخضوع له والاعتراف برئاسته، ولا يلومكم على هذا بنو وطنكم المخالفون لكم في الدين، كما انكم لا تلومونهم على خضوعهم لرؤساء دينهم في الممالك الاخرى، كخضوع الكاثوليك العثمانيين لحضرة البابا. وان مقام الخلافة في الاسلام، أعرق في الدين من مقام البابوية في النصرانية، فان الصحابة لم يدفنوا النبي صلى الله عليه وسلم إلا بعد تعيين الخليفة عنه. أما السلطة البابوية فقد أفادنا التاريخ انها تأسست في أوائل القرن السابع للميلاد وأول من رتب قوانين الكنيسة ووضع رسومها هو البابا غريغوريوس الاول الذي تولى من سنة ٥٩٠ إلى ٦٠٤ ومعلوم ان

سلطة خليفة الاسلام روحية وزمنية (سياسية) من الاصل ، أما البابوية فقد أنيطت بها السلطة الزمنية في اثناء القرن الثامن للميلاد إثر مقاومة البابا لقانون ليون قيصر القسطنطينية القاضي بازالة الصور والتماثيل من الكنائس ، ونجاحه في ابطال العمل بما سنه القيصر وفي سنة ٨٠٠ م لبس البابا الملك شرلمان التاج وسمي شرلمان حاميا للمسيحيين ورئيسا جسمانيا لهم كما ان البابا رئيس روحاني وكان نصب البابا مشروطا بتصديق الامبراطور (ولا تنس ما نقل عن جوستنيانوس قيصر القسطنطينية في ذلك) مع هذا فانك تجد فرقة الكاثوليك وهي أكبر فرق النصارى خاضعة أتم الخضوع الديني لسلطة البابا حيث اتفقوا بعد عدة قرون من وجود دياناتهم على ذلك، فما بالنا نحن المسلمين لا نرتبط بخليفتنا مع وجود الاوامر بذلك في الكتاب والسنة معمولا بها من ابتداء وجود الامة؟ أتخشى ان يقال اننا متعصبون؟ ان كان معنى التعصب ما ذكرنا فلنكن متعصبين، فان من يغمز بذلك أشدنا تعصبا، ونحن نريه الجذع في عينه قبل ان يرينا القذى في عيننا، وان كان التعصب عبارة عن اهانة المخالف وإيذائه وإكراهه على ترك دينه ولو بضروب الحيل فنحن أبرأ الناس من التعصب، وأبعد عنه قديما وحديثا.

ثم تداحرجنا اليه خصمنا في بعض الازمنة لكن لم يكن الا كسحاب الصيف عن قريب يقشع، ولا تزال أوربا تطعننا بسوء معاملتها لنا واضطهادها علينا بحجة الاستعمار للمسيحيين مالا نعلم، وما معناه ان نرسخ في هذا العلم الا الدين الاسلامي الذي «يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي» على اننا لسنا متمسكين به على وجه

الكمال، ولو صرفنا « والعياذ بالله » كما صرفت أوربا الافراط في التعصب كما أفرطت وبقينا كما بقيت ، وقد قلت ولا أزال أقول لا يصد عن الغلو والافراط في التعصب الا التمسك بآداب الدين الصحيحة ، فمن كان يحب الاصلاح ويرغب في الوفاق بين المختلفين في الدين لا سيما المسلمين والنصارى فليأمر الاولين بآداب القرآن والآخرين بمواعظ الانجيل، وعلى الله قصد السبيل ، ومن حاول الاصلاح في الشرق بغير هذا فقد حاول المستحيل

فيا أيها العثمانيون ان لكم مخادعين من أنفسكم تأمنون جانبهم ، وتتوهمون غيرتهم ، قد أوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، فاحذروهم على وطنكم وبلادكم ، فانهم عاملون على اخلال عصبيتكم الدينية والجنسية العثمانية معا ، يبغضون اليكم دولتكم ، ويسعون في اماتة لغتكم واحياء لغات أوربا ، ويلقون بينكم وبين بني وطنكم العداوة والبغضاء بعنوان الدين ، وما ذلك الا هدم للدين . ليضع كل منكم يده في يد شريكه في وطنه ، وتعاونوا على الاعمال النافعة ، وتعاملوا بالامانة والصدق ، لتقوى فيكم المحبة التي تغفر معها المفوات ، ويعفى عن السيئات ، لا تخدعوا الاوربا فانتم أولا تشاهدون كيف اتفق أعظم دولها على شقاء اخوانكم في كريت . حافظوا على جامعتكم العثمانية واجتهدوا في تعميم التربية التي تصلح أحوال الحاكم والمحكوم ، ولا يجر منكم اختلاف الدين والمذهب على ان لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله عليم بذات الصدور